بسم الله الرحمن الرحيم

في السنة النبوية

الحمد الله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، وبفضله تتنزَّل الخيرات والبركات ، وبتوفيقه تتحقَّق المقاصد والغايات ، والصلاة والسلام على رحمة الله المهداة للعالمين ، وعلى أهله ، وصحبه ، ومَن دعا بدعوته واهتدى بسنَّته وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

خير ما أحييكم به أيها الإخوة الأحبَّة ، والأبناء الأعزَّة ، تحيَّة الإسلام ، وتحيَّة الإسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(وبعد)

فموضوع السنة موضوع مهم ، قد اضطربت فيه الأفكار ، واختلطت فيه المفاهيم ، وتباينت الطرق ، ويجب علينا أن نقف الموقف الوسط في هذا الموضوع الخطير .

السنة في اللغة : الطريقة المتبعة أو المعتادة ، حسنة كانت أم سيئة ، وحسنها وسوءها إنما يأتي على طريق الوصف والإضافة .

obeikandl.com

فمن الوصف : « مَن سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة . . . ومَن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة . . . »[1] .

ومن الإضافة : « ومبتغ في الإسلام سنَّة الجاهلية . . . »[2].

وفي اصطلاح المحدِّثين : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خُلُقيَّة أو خَلْقية ، أو سيرة[3].

السنة منهاج لشرح الإسلام وتطبيقه :

السنة هي المنهاج النبوي المفصل لشرح الإسلام وتطبيقه ، بما يجسد قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤) ، ففي السنة تتجلَّى التزكية في تعليم الكتاب والحكمة ، إلى جوار تلاوة آيات الله المنزَّلة ، بتفهيمهم معاني آيات القرآن ، ومقاصد تشريعه ، وأسرار توجيهه ، وبيان ما غمض عليهم منه ، وتفصيل ما أجمل من أوامره ونواهيه وأخباره ، حتى لا يزيغوا في فَهمه أو اتِّباعه .

---

١١) رواه مسلم في العلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٤) ، عن جرير بن عبد الله .

(٢) رواه البخاري في الديات (٦٨٨٢) ، والبيهقي في النفقات (٢٧/٨) ، عن ابن عباس .

(٣) انظر : كتابنا المدخل لدراسة السنة النبوية (٧-١٣). ط . مكتبة وهبة

السنة المصدر الثاني للتشريع :

والسنة بإجماع المسلمين هي المصدر الثاني للتشريع في الإسلام ، لا يختلف في ذلك فقيه عن فقيه ، ولا مذهب عن مذهب ، أهل الرأي وأهل الأثر في ذلك سواء . الفرق بين أهل الرأي وأهل الأثر : أن أهل الرأي يفرضون مسائل ، أرأيتَ لو حدث كذا؟ لكان كذا . والأثريون لا يفترضون مثل هذه المسائل .

أهل الرأي يؤوِّلون بعض الأحاديث ، وأهل الأثر لا يؤوِّلونها ، مثل : ما جوَّز أهل الرأي أن تخرج القيمة في الزكاة ، وأهل الأثر لا يجوِّزون إخراج القيمة ، من أجل هذه الأمور قيل عن هؤلاء : أهل الرأي وأولئك أهل الأثر .

وفي بعض المسائل نرى أن أهل الرأي أقرب إلى الأثر من أهل الأثر أنفسهم ، كما نرى ذلك في قضية زكاة الحلي ، فالأحناف أقرب إلى الأثر من الآخرين[1] .

جميع العلماء يحتكمون إلى السنة :

جميع علماء المسلمين يحتكمون إلى السنة ، كلُّ الفقهاء ، وكلُّ المذاهب تحتكم إلى السنة ، ولا يخالف أحد السنة إلا لعذر من الأعذار ، وسبب من الأسباب العشرة التي ذكرها شيخ الإسلام

---

(١) انظر : فتح القدير لابن همام (٥٢٥/١) ، طبعة دار صادر ، بيروت .

ابن تيمية في كتابه الشهير (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) ، كأن لم يبلغه الحديث ، أو لم يثبت عنده ، أو اعتقد ضعفه ، أو اشتراط شروطًا في خبر الواحد يخالفه فيها غيره ، أو يكون قد نسيه ، أو لم يعرف دلالته ، أو رأى أن لا دلالة فيه ، أو اعتقد الدلالة ليست مراده ، أو رأى الحديث معارضا بما يدل على ضعفه ، أو نسخه ، أو تأويله إن كان قابلا للتأويل ، بما يصلح أن يكون معارضًا بالاتفاق أو بما لا يعتقد غيره ، أو جنسه معارضًا .

فلم يتعمَّد إمام من الأئمة المقبولين عند الأمة رفض حديث ثابت قط ، ولا يتصوَّر ذلك .

السنة مصدرا للسلوك :

الأمة مجتمعة على أن السنة المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن .

والأمة مجتمعة على أن السنة مصدر السلوك أيضا . المتصوِّفة الملتزمون يقولون : إن كلَّ الطرق مسدودة ـ كما قال الجنيد رحمه الله سيد القوم ـ إلا على مَن اقتفى آثار رسول الله ﷺ. وقال: من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنَّة . [1] وكذلك قال

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية (١/١٠٦، ١٠٧) ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٦٦م .

أبو سليمان الداراني : إنه لتقع في قلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبله منه إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة[1]. وكذلك رُوى عن كثير منهم . وقال أبو يزيد : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من العلم ومتابعته[2].

أما ما قاله بعضهم : إذا سمعتَ الصوفي يقول : حدَّثنا وأخبرنا ، فاغسل يدك منه . أو قول بعضهم وقيل : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق؟ يعني : أنه يأخذ من الله مباشرة . أو قول مَن قال : أنتم تأخذون علومكم ميِّت عن ميِّت ، ونحن نأخذ علومنا عن الحيِّ الذي لا يموت[3]! أي عن طريق الكشف والإلهام . وهكذا كان يقول بعضهم : حدثني قلبي عن ربي[4] . فليس في حاجة إلى واسطة .

هذه العبارات كلُّها لا تعبِّر عن محقِّقي الصوفية ، عن سادة القوم ، وإنما أقصى ما يعتذر به عن قائلها ــ ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله : (فهذه الكلمات أحسن أحوال قائلها : أن يكون

---

(١) رواه القشيري في رسالته (٨٦/١) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٦/١٠) .

(٣) انظر : مدارج السالكين (٤٦٨/٢) ، بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي ، طبعة السنة المحمدية .

(٤) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان (١٢٣/١) .

جاهلا يعذر بجهله ، أو شاطحا معترفا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله ، ولولا (أخبرنا) و(حدَّثنا) لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام .

واعلم أن مَن أحالك على غير أخبرنا وحدَّثنا فقد أحالك ، إما على : خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأي نفسي ، فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدَّثنا إلا شبهات المتكلِّمين ، وآراء المنحرفين وخيالات المتصوِّفين ، وقياس المتفلسفين ، ومن فارق الدليل ضلَّ عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكلُّ طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة : فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم)[1] .

الفرق بين السُنَّة والقرآن :

السنة مصدر للتشريع ، ومصدر للسلوك ، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم بإجماع الأمة ؛ لأن القرآن كلَّه قطعيُّ الثبوت ، ثابت بالتواتر اليقيني ، نقلته الأمة جيلا عن جيل ، وليس فردًا عن فرد . والسنة معظمها ثابت بالظنِّ ، بخبر الآحاد . فالمتواتر في السنة قليل ، خصوصًا التواتر اللفظي ، هناك متواترات عملية : مثل الصلاة والحج وغير ذلك ، فالمتواتر اللفظي محدود جدًّا في السنة ، فهي ثابتة بالظنِّ ، والظنُّ يكفي في استنباط الأحكام .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٤٦٨/٢) ، بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي ، طبعة السنة المحمدية .

كذلك القرآن ثابت بالوحي الجلي ، عن طريق جبريل عليه السلام ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٣،١٩٤). والسنة منها ماجاء عن طريق جبريل عليه السلام ، أو عن طريق النفخ في الرَّوع ، أو الإلهام ، أو عن طريق كلام الله لعبده ، كما حدث لموسى عليه السلام : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء:١٦٤)، أو عن طريق الرؤيا ، أو عن طريق الاجتهاد الذي أقرَّه الله عليه ، وهو ما يسمِّيه العلماء بالوحي الباطن ؛ لأنه ما دام أُقرَّ فقد ثبت .

أيضا القرآن لفظه ومعناه من عند الله . إنما السنة اللفظ من عند رسول الله ﷺ ، والمعنى من عند الله سبحانه وتعالى .

أيضا القرآن محفوظ بألفاظه ومعانيه ، وجملته وتفصيله ، أما السنة فهي محفوظة بمعانيها في الجملة لا بالتفصيل ، ومحفوظه كذلك ، لأنها البيان للقرآن ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) ، يقتضي حفظ السنة أيضا ؛ لأنه لا معنى أن يُحفظ المبيَّن ولا يحفظ بيانه ، ويظلُّ هو غامضا أو ناقصا .

أيضا القرآن معجز ، كتاب معجز ولا معجز غيره من كتب الله تعالى ، فلا يوجد كتاب معجز إلا القرآن ، لا صحف إبراهيم ، ولا التوراة ولا الزبور ولا الإنجيل . والسنة وإن كانت في قمَّة البلاغة البشرية ، ولكنها لم تصل إلى مرتبة الإعجاز .

فهذا بعض ما تختلف به السنة عن القرآن .

علاقة السُّنَّة بالقرآن :

السنة هي المبيِّنة للقرآن ، فإن الله تبارك وتعالى كلَّف رسوله ﷺ أن يبيِّن للناس ما نزل إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) ، السنة تتضمَّن البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن الكريم ، من هنا لا يتصوَّر الاستغناء بالقرآن عن السنة ، الذين يريدون الاستغناء بالقرآن عن السنة يريد بعضهم أن يستدلَّ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩). فلم تعد هناك حاجة إلى السنة .

ونحن نقول لهؤلاء : لماذا تذكرون هذا ، وتنسون قوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل:٤٤)، ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (التغابن:١٢)، ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ (النور:٥٤)، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:٣١،٣٢)، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور: ٥١، ٥٢)، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور: ٥٤)، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣)، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر: ٧)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النساء: ٥٩).

وقد أجمعت الأمة على أن الردَّ إلى الله يعني الردَّ إلى كتابه، وأن الردَّ إلى الرسول ﷺ بعد وفاته يعني الردَّ إلى سنَّته[1].

فالذين يزعمون الاستغناء بالقرآن عن السنَّة، يردُّ عليهم القرآن نفسه، ويردُّ عليهم إجماع الأمة، ويردُّ عليهم فعل الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا يرجعون إلى السنة ويحتكمون إليها. فعندما أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «بما تقضي؟». قال: بكتاب الله.

قال: «فإن لم تجد؟». قال: فبسنَّة رسول الله.

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٤/٣٢١).

قال : « فإن لم تجد؟ » . قال : أجتهد رأيي ولا آلو . فضرب النبي ﷺ على صدره وقال : « الحمد الله الذي وفّق رسول رسول الله لما يُرضي رسول الله »[1] .

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠٠٧)، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف؛ لإبهام أصحاب معاذ ، وجهالة الحارث بن عمرو ، وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٨) وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٧٧٠)، قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٩/١، ١٩٠) : فإن اعترض المخالف بأن قال : لا يصح هذا الخبر ، لأنه يروى عن آناس من أهل حمص لم يسموا فهم مجاهيل ، فالجواب : أن قول الحارث بن عمرو ، عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ ، يدل على شهرة الحديث ، وكثرة رواته . . . على أن أهل العلم قد تقبلوه واحتجوا به ، فوقفنا بذلك على صحته عندهم ـ وذكر أحاديث ـ وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد ، لكن لما تلقتها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها. وقال ابن القيم إعلام الموقعين (٢٠٢/١) نحو هذا ثم قال : كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى ، ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح ، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم ، لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك . كيف شعبة حامل لواء هذا الحديث ، وقد قال بعض أئمة الحديث : إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يديك به ، وجود إسناده ابن تيمية مجموع الفتاوى (٣٦٤/١٣)، وابن كثير في التفسير (٧/١) .

وهكذا كان أبو بكر ، وكان عمر ﷺ ، إذا وجدا أمرا في كتاب الله تعالى قضيا به ، وإلا فبالسنَّة إذا عرفاها ، وإلا سألا الناس : هل منكم مَن رأى أو سمع رسول الله ﷺ قضى في هذا بشيء ؟ فإن وجداه قضيا به . في خلافة أبي بكر جاءت إحدى الجدَّات ـ بعد موت حفيدها ـ تطلب نصيبها من تركته . فقال لها أبو بكر : ما أجد لك في كتاب الله شيئا ، وما علمتُ رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا . ثم سأل الناس ، فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يعطيها السدس . فقال هل معك أحد؟ فشهد محمد ابن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه أبو بكر ﷺ [1] .

وجاء عن عمر ، أنه استشارهم في إملاص المرأة ، فقال له المغيرة : « قضى فيه رسول الله ﷺ بالغرة » فقال له عمر : إن كنت صادقا ، فأت بأحد يعلم ذلك . فشهد محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ قضى به [2] .

---

(١) رواه أحمد (١٧٩٧٨) ، وقال مخرجوه : صحيح لغيره ، وأبو داود (٣٨٩٤) ، والترمذي (٢١٠٠) ، وابن ماجه (٢٧٢٤) ، والنسائي في الكبري (٦٣٤٦) ، كلهم في الفرائض ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٦١٧) ، عن قبيصة بن ذؤيب .

(٢) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٧) ، وأحمد (١٧١٣٦) ، عن المغيرة بن شعبة .

وبهذا كتب عمر رضي الله عنه إلى شُريح القاضي : إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقضِ به ، ولا يلفتنك الرجال عنه ، فإن لم يكن في كتاب الله ، عزَّ وجلَّ ، وكان في سنة رسول الله ﷺ فاقضِ به ، فإن لم يكن في كتاب الله عزَّ وجلَّ ، ولا في سنَّة رسول الله ﷺ فاقضِ بما قضى به أئمة الهدى ، فإن لم يكن في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله ﷺ ، ولا في ما قضى به أئمة الهدى ، فأنت بالخيار ، إن شئتَ أن تجتهد رأيك ، وإن شئتَ أن تؤامرني ، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا أسلم لك[1] .

ثم أجمعت الصحابة ومَن بعدهم على الردِّ إلى السنة ، وقال السيوطي في مفتاح الجنة : وأخرج البيهقي بسنده ، عن أبي أيوب السختياني : أن رجلاً قال لمُطرِّف بن عبد الله : لا تحدِّثونا إلا بما في القرآن . فقال مطرف : إنا والله ما نريد بالقرآن بدلا ، ولكن من هو أعلم بالقرآن منا ـ يريد رسول الله ﷺ .

وقال أيوب : إذا حدَّثتَ الرجل بسُنَّة . فقال : دعنا من هذا ، وأنبئنا عن القرآن ، فاعلم أنه ضالٌّ[2] .

---

(١) رواه النسائي (٥٣٩٩) ، والبيهقي في الكبرى (١١٠/١٠) كلاهما في آداب القضاة ، وصحح إسناده الضياء في المختارة (١٣٣) ، والألباني في السلسلة الضعيفة (٦٨١٤) .

(٢) مفتاح الجنة صـ٣٥ ، ٣٦ .

والعقل يصدق هذا ، فليس معقولا أن نستغني بالقرآن عن السنة ، و نحن نجد كلّ القوانين في الدنيا ، لها مذكّرات تفسيرية وإيضاحية تُفَسِّرُ وتتضح بها ، وتُعتبر جزءا منها ، فكيف لا يكون ذلك للقرآن؟! ولا يمكن أن نفهم القرآن بدون أن نفهم السنة ، فالسنة مبيِّنة للقرآن .

كيف نفهم قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (الممتحنة:١٠،١١)؟ إذا لم تعرف : فيم نزلت هذه الآيات ؟ وعمَّن تتحدَّث ؟ ولا يعرف ذلك إلا من السنة .

وكثير من الآيات لا بدَّ فيها من فَهم السنة ، فالسنة تخصِّص العام ، وتقيِّد المطلق ، وتفصِّل المجمل ، وتبيِّن المبهم . وهذا ما أجمعت عليه الأمة .

كيف نستطيع أن نصلِّي إذا لم نأخذ بالسنة؟ القرآن الكريم أمرنا بالصلاة ، وذكر لنا أن هناك صلاة الفجر وصلاة العشاء ، كما قال تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ (النور:٥٨) بينما لم يذكر القرآن لنا صلاة الظهر والعصر والمغرب بالقول الصريح ، وبعد ذلك كيفية الصلاة ، هذه الأركان والأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم ، كيف عرَفناها ؟ عرَفناها بالسنة .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، أن رجلا أتاه فسأله عن شيء ، فحدِّثه ، فقال الرجل: حدِّثوا عن كتاب الله، ولا تحدثوا عن غيره. فقال عمران بن حصين رضي الله عنه : إنك امرؤ أحمق! أتجد في كتاب الله تعالى الظهر أربعًا لا يُجهر فيها؟ ثم عدَّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا . ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله مفسَّرًا؟! إن كتاب الله قد أبهم هذا ، وإن السنة تفسِّر ذلك[1].

وكذلك الحج وغيره عُرِف بالسنة ، قال ﷺ : « خذوا عني مناسككم »[2]. كما قال في الصلاة : « صلوا كما رأيتموني أصلِّي »[3].

---

(١) رواه عبد الرزاق في جامع معمر بن راشد (٢٠٤٧٤) ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٢٣٢) ، والبيهقي في الكبري في الصلاة (١٩٤/٢) .

(٢) رواه مسلم في الحج (١٢٩٧) ، ومالك في الحج (٤٦٥) ، وأحمد (١٤٤١٩) ، وأبو داود في المناسك (١٩٧٠) ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٨) ، عن مالك بن الحويرث .

كما استقلت السنة بأحكام لم ينصَّ عليها القرآن الكريم ، وليست بيانًا له ، ولا تأكيدا لما جاء فيه ، وإنما هو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ، ولا تحل معصيته .

فلا يمكن الاستغناء عن السنة .

ومن العلماء من يرد هذا النوع من الأحكام إلى القرآن ، فتحريم الجمع بين البنت وعمتها ، والبنت وخالتها ، قالوا : هو قياس على الجمع بين الأختين ، وتحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة ، هو من تحريم الترف الذي بالغ القرآن في ذمه والإنكار على أهله .

فلا يختلف هؤلاء العلماء والآخرون في النتيجة إنما يختلفون في التفسير .

حفظ الله للسنة :

وقد حفظ الله سبحانه السنة في مجموعها ، فأعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يزيدوا في القرآن ولا أن ينقصوا منه ، ولكن كان جهدهم موجَّها إلى السنة ، فكذبوا على الرسول ﷺ ، وأدخلوا على السنة ما ليس منها ، وهو ما حذَّر منه النبي ﷺ في حياته ، فقال في حديثه المتواتر : « مَن كذب علي متعمِّدا فليتبوَّأ مقعده من النار »[1] . فقد عرَف ﷺ أن هناك مَن سيكذب عليه ، وقد كذب عليه الكَذَّابون كما أخبر ﷺ .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (١١٠) ، ومسلم في المقدمة (٣) ، وأحمد (٩٣١٦) ، عن أبي هريرة .

وقد بيَّن علماء الأمة رحمهم الله تعالى أسباب الكذب أو أسباب وضع الحديث: كالزندقة، والخلافات السياسية بين الفرق، والتعصب للجنس أو البلد، والخلافات الكلامية والفقهية، والقصص والوعظ، وترغيب الناس في الطاعة بالأحاديث الموضوعة.

وأُلِّفت كتب في الأحاديث الموضوعة، منها: (الموضوعات) لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، و(تذكرة الموضوعات) لابن طاهر المقدسي (ت٥٠٧هـ)، و(اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) للسيوطي (ت٩١١هـ)، و(الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) للشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، وغيرها؛ لتحذير الأمة من هذه الأحاديث.

قيل لعبد الله بن المبارك هذه الأحاديث الموضوعة! قال: يعيش لها الجهابذة[1]! الذين ينخلونها نخلا، وينقدونها كما ينقد الصيرفي الدراهم الزائفة ويرمي بها في سلَّة المهملات.

الإسناد من خصائص الأمة الإسلامية:

لقد هيَّأ الله تعالى لهذه للسنة أناسا عاشوا لها، رفضوا أن يُقبل أيُّ حديث إلا بإسناد، لأن العلم بغير إسناد لا قيمة له. قرأ الإمام عبد الله بن المبارك تفسير ابن مقاتل فقال: يا له من علم لو

(١) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣/١).

كان له إسناد[1]. يعني : لم يقُل لنا من أين جاء بهذه الأقوال . وقال الإمام ابن سيرين : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم[2]. وقالوا : لولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء ، ولكن إذا قيل له : مَن حدَّثك؟ بقي[3]!

قال الشاطبي : (وقولهم : الإسناد من الدين ، لا يعنون به قولَ المحدث : (حدثني فلان ، عن فلان) مجرَّدا ، بل يريدون ذلك لما تضمَّنه من معرفة الرجال الذين يُحَدِّثُ عنهم ، حتى لا يُسنِدَ إلى مجهول ولا مجروح ولا متَّهم ، إلاَّ عمَّن تَحْصُلُ الثقة بروايته ، لأن رُوح المسألة أن يغلب على الظنِّ من غير ريبة : أن ذلك الحديث قد قاله النبي ﷺ ، لنعتمد عليه في الشريعة ، ونُسنِدَ إليه الأحكام[4]. ومعنى بقي : أي بَقِيَ ساكتًا مفحما ، أو بَقِيَ ساكتًا مبهوتًا منقطعًا .

وهذا الإسناد الذي حُفظت به السنة من خصائص هذه الأمة .

قال أبو حاتم الرازي : لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمة يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة[5].

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١١٥/٦٠) .

(٢) رواه مسلم في المقدمة (١٢/١) .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٦٥/٦) .

(٤) انظر : الاعتصام (١/ ٢٢٥) .

(٥) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/٣٨) .

فاليهود والنصارى ليس عندهم شيء من الإسناد ، والأحاديث التي نعتبرها ضعيفة عندنا أفضل في ثبوتها من كتبهم ، لم تصل كتبهم إلى مثل هذه الأحاديث الضعيفة عندنا ، فنحن بفضل الله تعالى الأمة الوحيدة التي اشترطت السند لقَبول المرويات .

عن أبي إسحق إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلتُ لعبد الله ابن المبارك : يا أبا عبد الرحمن ، الحديث الذي جاء : « إن من البرِّ بعد البرِّ أن تصلِّي لأبويك مع صلاتك ، وتصوم لهما مع صومك» . قال : فقال عبد الله : يا أبا إسحق ، عمَّن هذا ؟ قال : قلتُ له : هذا من حديث شهاب بن خراش . فقال : ثقة ، عمَّن ؟ قال : قلتُ : عن الحجاج بن دينار . قال : ثقة ، عمَّن؟ قال : قلتُ : قال رسول الله ﷺ . قال : يا أبا إسحق ، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي ، ولكن ليس في الصدقة اختلاف[1].

ولذلك اخترعوا علم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم التواريخ ، وغيرها .

معالم التعامل مع السنة :

هناك عدة معالم في التعامل مع السنة ، منها :

---

(١) رواه مسلم في المقدمة (١٢/١) .